ويقولون مدرسةٌ عالياآء فيأتون بهذا اللفظ ممدوداً وهو غلط لان افعل التفضيل يؤنث على فُعْلَى بالقصر مع ضم الفآء(١) واما العالياآء بالمدّ فمعناها المكان المُشرِف وهي اسمٌ بمنزلة البيداآء والصحراآء وما جرى مجراهما وهي بفتح الفآء

ويقولون هذا من المصالح الدائمية يعنون الدائمة فيزيدون عليهِ ياآء النسبة لغير معنى وهو غريب (ستأتي البقية)

ما ورآء زمن التأريخ

من البديهي ان زمن التأريخ لم يبدأ الا بعد استنباط الكتابة والشروع في تدوين الحوادث ويختلف عهدهُ في كل بلاد تبعاً لحالة الحضارة فيها وزمن دخول الكتابة بين اهلها فهو في اوربا لا يتعدى ١٥٠٠ سنة قبل التاريخ الميلادي وفي مصر ينتهي الى ٤٠٠٠ سنة قبل التاريخ المذكور. واما قبل ذلك فلم يكن لشيءٍ من الامم تاريخٌ مدوَّن وانما كانت اخبار السلف تُتناقل بالرواية والسماع وربما أُفرغ حديث الوقائع الكبرى منها في قالب النظم تسهيلاً لحفظهِ واستظهارهِ كما فعل اوميروس وغيرهُ من شعراآء الدهر القديم. بيد ان تلك المنظومات التقليدية قد اعتورها ولا ريب كثيرٌ

(١) اما استعمال هذه اللفظة مؤنثة مع التنكير على خلاف المنصوص عليهِ في قواعد هذا الباب فالذي حققهُ غير واحد ان ذلك انما يمتنع عند قصد المفاضلة اي عند اقتران لفظ التفضيل بمن ولو مقدّرةً كما اذا قيل زيد طويل وهند اطول اي اطول منهُ فلا يقال وهند طولى . فاذا قصد بهِ مجرد الوصف بالزيادة جرى كغيرهِ من الصفات فيقال امرأة فضلى ورجال افاضل وهلم جرًّا

من التبديل والزيادة في اثنآء تداوُل الرواة لها عصراً بعد عصر بحيث انها لم تبلغنا الا بعد ان تنكرت فيها صور الوقائع ودخلها كثيرٌ من الخرافات والقصص الموضوعة ولذلك كان غالب ما فيها لا يصلح لتقرير الحقائق التأريخية اللهمَّ الا فيما يختص بالعادات والشرائع وما جرى مجراها مما كان لآخر عهد اولئك الرواة

وفضلاً عن ذلك فان تلك التقاليد لم يرد فيها الا الشيء النزر مما يتعلق بخاصة بعض الامم وذكر شيء من مشهور وقائعها ولم يكن ما رُوي فيها الا من الحوادث المتأخرة التي حدثت بعد ان تجيّلت الاجيال وتحيزت الامم واصبح للانسان شؤونٌ اجتماعية وبعبارةٍ اخرى بعد ان خرج الانسان من حال الهمجية المحضة وصار على شيءٍ من الحضارة . وبقي ورآء ذلك من النوازل الكونية والحوادث العمرانية وتطوُّرات الانسان في الصناعة والسكنى والمعاش وسائر احوال المدنية مما استغرق مئاتٍ كثيرة من القرون ما سُدِل دونهُ حجاب الغيب وطُوِي بين تضاعيف الايام

ولا ريب ان الوصول الى معرفة ما كان في تلك العصور النائية مما لا سبيل اليهِ غير ان المباحث الجيولوجية قد أدّت الى كشف كثيرٍ من الخفايا المحتجبة ورآء ظلمات القِدَم وابدت لنا من آثار الاولين ما دلّ على ما كانوا عليهِ في الجملة بل دلّ على كثيرٍ من مفصَّل احوالهم ووقائعهم وما مرَّ بهم من الحوادث وتنقلوا فيهِ من الاطوار . وذلك ان اصحاب هذا العلم يقسمون تأريخ الارض الى اربعة ادهر يتقدمها دهرٌ خامس يُعرَف بالدهر الفلكي وهو الزمن الذي تمَّ فيه تكوُّن الارض وانتهى بظهور بعض الانواع

الدنيئة من الكائنات العُضوية كالطحالب والخَشاش وهي ما لا دماغ لهُ من الحيوان . والدهر الاول بعدهُ هو الذي رسبت فيهِ التربة الاولى المتجمعة عن احتكاك الصخور وفعل السيول والامطار وفيهِ ظهرت الحيوانات القشرية والهُلامية ثم الاسماك والحشرات الاولى التي انقرضت في الازمنة التالية . وظهرت في الدهر الثاني الاشجار الدائمة الخضرة وبعض انواع الحشرات . وفي الثالث الاشجار التي تتجدد خضرتها كل سنة وذوات الاثدي من الحيوان . وفي الرابع ظهر الانسان والحيوانات الداجنة والنباتات البستانية وينتهي هذا الدهر باتهآء الانقلابات العامَّة وثبوت البرّ والبحر على ما هما عليهِ الى هذا اليوم . ويقدّرون مدّة هذه الادهر الاربعة بنحو ٢٤٠ الف سنة ولهم في كل واحدٍ منها تفاصيل طويلة ليست من غرضنا في هذا الموضع

واول من شرع في البحث عن آثار الانسان في الطبقات الجيولوجية رجلٌ من علمآء الفرنسيس من اهل القرن الغابر يقال لهُ بُوشّاي فانهُ عثر على قِطَع من الصوّان المنحوت في تربة الدهر الرابع ثم عثر على فكّ انسان وبقايا اخر من هياكل بشرية من الدهر المذكور وبعضها من الدهر الثالث استدلَّ منها على شيء من احوال الانسان في العصور الخالية ومذ ذاك تنبه العلمآء للبحث عن هذه البقايا فنشأ عن ذلك علمٌ قائمٌ بنفسهِ يُعرَف بعلم ما ورآء التاريخ

وهذا العلم لا يُستنَد فيهِ الى شيء من الروايات التقليدية ولكن مرجعهُ الى ما يسمَّى بعلم الرُفات (الپاليونتولوجيا) ومدارهُ على الدفائن التي

توجد في طبقات الارض من رُفات العظام البشرية وما يوجـد معها من الآلات والمواعين مما يُستدَلّ بهِ على اوائل امر الانسان وتدرُّجهِ في اطوار الحضارة في كل عصرٍ من تلك العصور المتطاولة . وقد تبيَّن من فحص تلك المخلَّفات انهُ في اول عهدهِ لم يكن يعرف من الادوات والاسلحة الا الظرار وهي شظايا من حجر الصوّان كان يكسر بعضهُ ببعض او يوقد عليهِ حتى يتشقق وينفصل بعضهُ من بعض ثم يختار منهُ ما كان ذا اطرافٍ حادّة يستعملهُ في ذبح الحيوان ويدافع بهِ عن نفسهِ . ثم توصل بعد ازمان الى نحت تلك الظرار وتسوية وجوهها ولعلهُ كان يحكّ بعضها ببعض حتى يزول ما فيها من الأَمْت والخشونة وهو اول عهدهِ بالصناعة . ولبث على ذلك زماناً آخر ثم انتقل فجأةً من استخدام الصوّان الى استخدام حجر الجاد وهو نوعٌ من الصخر شبيهٌ بالصلّبيّ اي حجر المسنّ زيتيّ اللون او رماديُّهُ شحميّ البنآء كان يتخذ منهُ ادواتٍ مختلفة كالفؤوس والمُدَى ونصال السهام والمزاريق فارتقى درجةً اخرى في الصناعة . وكان في هذا العصر كلهِ وهو اطول العصور التي مرّت بهِ لا اداة لهُ الا تلك الحجارة ولذلك يُعرَف بالعصر الحجري

ويأتي بعد ذلك عصران آخران احدهما عصر الحديد والآخر عصر الشبَه او الشبَان وهو معدنٌ شديد الصلابة يُتَّخذ من مزيج من النحاس والقصدير . ولا يتعين السابق من هذين العصرين لانهُ في بعض البلاد تُرَى الأدَوات الحديدية سابقة لأدَوات الشبَه وفي بعضها بالعكس فالظاهر ان هـذين المعدنين كانا متعاصرين لكن في جهاتٍ مختلفة

من الارض ثم عمَّ استعمالها . وذلك انهُ في اوربا عامةً وُجد زمن الشبه سابقـاً لزمن الحديد وفي سيبيريا وُجد في مكان الشبه النحاس وبعكس ذلك في افريقيا فان الحديد وُجد تالياً للحجر ولم يدخلهـا الشبه الا بعد انتشار الحضارة ورد عليها من آسيا

ثم انهُ في اواخر الدهر الرابع نشأت صناعة الخزف وكانوا اولاً يصنعون منهُ اواني يجففونها في الشمس ثم توصلوا الى طبخها بالنـار . وقد وُجد شيءٌ كثير من تلك الاواني في بلاد الدنمرك ووُجِد بعد ذلك آنية من الصدف وادوات من قصب الحيوان وقد شُقّ طولاً لاخراج المخّ من جوفهِ

اما مساكنهم فقد اتى على الانسان دهرٌ طويل لم يكن لهُ مأوًى الا الكهوف ولم يتوصل الى بناء الاكواخ الا في عهدٍ متأخر . وكان كثيراً ما يرفع تلك الاكواخ على اعمدةٍ يركزها في وسط بحيرة او مجرى نهرٍ كبير فتكون مكتنفةً بالماء من جميع جهاتها. والاظهر انهُ كان يقصد من بنائها كذلك الاعتصام فيها من الضواري المفترسة وقد كانت ولا بدّ في ذلك الزمن اكثر مما هي لعهدنا هذا وربما قصد بها التحصن من الانسان نفسهِ . ولعلّ هذا هو السبب في بناء المدن المائية العجيبة التي اكتُشفت سنة ١٨٥٣ في بُحيرة زوريخ من بلاد سويسرا وذلك انهُ في شتاء تلك السنة انحطّت مياه البحيرة كثيراً وكانوا يودّون اصلاح طوارها [1] اي الطريق الممتدّ على شواطئها فاخذوا في حفر جوانبهـا

(١) مأخوذ من طوار الدار بالفتح وهو ما كان ممتدًّا معها من الفناء اي الساحة التي امامها . تعريب quai

فوجدوا الاعمدة التي كانت قائمة عليها تلك الابنية و بتتبّعها وجدوا انها تجمع عدة مدن كانت قائمةً فوق المآء تؤوي الواحدة منها ما بين ١٥٠٠ الى ١٨٠٠ نفس وحول كلّ منها صفٌّ من الاعمدة يقدَّر ان الغرض منهُ منع سفن العدوّ من الافضآء الى داخل المدينة . وقد وجدوا بين تلك الاعمدة كثيراً من بقايا الادوات المسكنية من حُطام آنية خزفية وعظام حيوانات وغيرها. وعثروا بعد ذلك على آثار كثيرٍ من تلك المدن المآئية على على طول شواطئ بحيرات سويسرا وكان بعضها لا يشتمل الا على ادواتٍ من حجر و بعضهـا يشتمل على ادوات من الحديد او من الشبَه ووُجد في بعضها ادوات من عظام الرَنّة وهي من حيوانات الشمال قد نُقش عليهـا امثلة حيوانات او نباتات محكمة الحفر مما يدل على ان الصناعة في ذلك العصر كانت قد بلغت شيئاً من الكمال

هذا محصَّل ما ذكروا من الكلام على آثار الانسان قبل عهد التاريخ مما عثروا عليهِ في نواحي اوربا وسيبيريا وافريقيا و بقي الكلام على مثل ذلك في بقية آسيا وأستراليا واميركا ولم نجد في ذلك ما فيهِ غنـآء . لكن تقدم في الكلام على العصر الحجري انهم وجدوا في جملة تلك المخلَّفات ادواتٍ من حجر الجـاد وهذا الحجر ليس من صخر اوربا وانما هو من حجارة جنوبي آسيا وقد استُدِلّ من وجودهِ في اواخر مدة العصر الحجري بعد ان لم يكن قبلهُ في كل ذلك العصر الطويل الا الصوّان فضلاً عن ان صنعتهُ تخالف صنعة الادوات الصوّانيّة على انهُ لا بدَّ هناك من حدوث طارئٍ عظيم طرأ فجأةً على البلاد الاوربية فاحدث فيها ذلك الانقلاب .

وقد تبين من الاطلاع على اللغة السنسكريتية والزندية ان بينهما وبين اكثر لغات اوربا تناسباً في كثير من الاوضاع والاحكام مما يشير الى ان لجميعها اصلاً واحداً هو اللغة الآريَّة . فاستُدلّ من ذلك كلهِ على ان اقواماً من الآريين هاجروا في ذلك الحين الى الغرب وانتشروا فيهِ وكانوا عدّة قبائل قيل كانت مساكنهم بارض لموريا وهي برٌّ واسع بجنوبي الهند طغى عليهِ البحر على اثر انخسافٍ حدث في تلك الناحية فنجا من نجا منهم ولحق بالبلاد الاوربية وذلك في اواخر الدهر الرابع . ثم امتزجوا باهل اوربا فانتقلت ملامحهم وهيآتهم الى السلائل التي امتزجوا بها كما يتبين ذلك في الامم الجرمانية والصقلبية وغيرها وكانوا ارقى مدنية منها فاقتبست من صناعتهم ولا يزال اثر ذلك فيها الى هذا اليوم والله اعلم

حديقة السوسن

لحضرة صاحب السعادة سليم بك عنحوري الدمشقي

(تابع لما قبل)

— ١ —

من انت ايها الرجل النشوان بخمرة غرورك . ومَن هي المرأة التي تتبعك اتباع الظلّ وتمتزج بك امتزاج الماء بالراح في معايشك ومصيرك . أليس ان اسم « الانسانية » يشملكما معاً ويربط احدكما بالآخر رباطاً لا انفكاك لهُ بلا امتيازٍ بينكما ولا تفريق

أليس ان وحدة النوع جعلتكما كياناً واحداً ذا شطرين متحدين روحاً ومعنىً وصورةً وان كنتما منفصلين وجوداً وجسماً ووظيفة